معالم التجديد في فكر الأمير عبد القادر بين الأصالة والإبداع

Milestones of renewal in Elmer Abd Elkader s and Thoth disunity Originality and Creativity

د. زاوط سعيدة [1]

تاريخ الإيداع: 14-12-2021 تاريخ القبول: 04-01-2022 تاريخ النشر: 01-06-2024

ملخص:

يحتاج المسلمون إلى تجديد الفكر الديني في كل مراحل تاريخهم، لان الفهم البشري المتكوَّن حول الدين يتبدد ويحتاج إلى حركة تاريخية شاملة تنهض بأمر الدين بعثا للإيمان في النفوس، وتأسيسا لخطاب نهضوي يرمم البنية الفكرية فيخلع ثوب التقليد والجمود. وقد ظهر الأمير عبد القادر الجزائري في مرحلة عصيبة في تاريخ الجزائر الحديثة، حيث تزامنت مع الاحتلال الفرنسي للجزائر وتسليم الدّايات للمدن الجزائرية، كما كان الوضع الداخلي يتسم بالجمود الفكري والثقافي والاستبداد السياسي.

رفض الأمير عبد القادر الوضع القائم، وحرص أشد الحرص على تجاوز الوعي القائم بكل مستوياته التقليدية، فظهر في الميدان رجل دولة استطاع أن يغير شكل نظام الحكم القائم، وأسس دولة مؤسسات سهر فيها على تطبيق النظام، والحكم بالعدل واهتم بالصناعة والزراعة والتعليم والجند، وعمل على قطع دابر الفساد والفوضى، واشتغل بالتدريس واهتم بالعلوم العقلية والشرعية، وحين أسر ونفي من البلاد ظهرت عبقريته في مختلف الفنون والعلوم، فأبدع في علم التصوف والتفسير والمناظرة وحوار الأديان، وكل ذلك ضمن أطر المرجعية الفكرية

[1] – جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة **zaoutsaida@gmail.com** / benaliyacine77@gmail.com

الإسلامية، ودرّس آلاف الطلاب ممن ساهموا في حركة النهضة العربية الإسلامية، ولذلك يستحق أن يحصل على لقب مجدد من مجددي القرن التاسع عشر.

Abstract:

Muslims need to renew religious thought in all stages of their history, because the human understanding formed around religion is dissipating and it needs a comprehensive historical movement that advances the order of religion as a revival of faith in the souls, and the foundation of a renaissance discourse that restores the intellectual structure and avoid imitation and stagnation. Prince Abdul Qadir Al-Jazaery appeared at a difficult stage in the history of modern Algeria, as it coincided with the French occupation and the "Days"delivery of Algerian cities. Indeed, internal situation was characterized by intellectual and cultural stagnation and political tyranny.

Prince Abdul Qadir rejected thissituation, and he was most keen to transcend the existing awareness at all its traditionallevels.

Hanse, a man appeared in the field who was able to change the form of the existing system of government, and established a state of institutions in which he ensured the application of the system and the rule with justice. he was interested in industry, agriculture, education and soldiers, and worked to cut corruption and chaos. Moreover, he ensured the development of teaching and mental and legal sciences. When he was captured and exiled from In the country, his genius appeared in various arts and sciences. He excelled in the science of Sufism, interpretation, debate and interfaith dialogue, all within the frameworks of Islamic intellectual reference, and he taught thousands of students who contributed to the Arab Islamic Renaissance movement. Therefore, he deserves to be given the title of renovator of the nineteenth century.

مقدمة:

بعدما دب الضعف في جسم الدولة العثمانية التي كانت إمبراطورية عظيمة تضم تحت لوائها الكثير من الدول العربية والإسلامية، كانت أوروبا في مرحلة نهوض سريع على مستويات الفكر والثقافة والصناعة خاصة الصناعة الحربية، توجهت أطماعهم وأنظارهم إليها، وقد افتُتِحَت حملاتها العسكرية باحتلال فرنسا للجزائر، في محاولة منها لاستغلال ثروات البلاد

وطمس هوية العباد. ورغم استسلام السلطة الرسمية في البلاد ومحاولة الاحتلال المستميتة في القضاء على الثقل الاجتماعي والسياسي والثقافي للزوايا وشيوخ القبائل، ومختلف الشخصيات الوطنية، إلا أن الأهالي رفضوا الاستسلام، وفي هذه الظروف ظهرت شخصية الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري، كمجاهد شاب تلقى تعليما أصليا مكثفا شمل القرءان الكريم وعلومه، والحديث الشريف وعلوم الحكمة والتصوف، إضافة إلى الفروسية والتدرب على القتال والحرب، وعقدت له البيعة فدشن عهدا جديدا أسس فيه الدولة الجزائرية الحديثة، بشكل نظام غير تقليدي، اهتم فيه بالصناعة والزراعة والتعليم والجند، وقاوم فرنسا لمدة سبعة عشر عاما.

وقد جمع الأمير الشاب بين مظهري الفروسية المادي والروحي في جهاده وفي حكومته. جمع بين السيف والقلم فكان خطيبا ومدرسا اهتم بالعلم والمعرفة اهتماما بالغا، ورافقته مكتبته أينما حل وارتحل في غزواته ضد المحتل. وعندما استسلم ووضع السلاح استمر في جهاده ونضاله بالقلم، فألف مؤلفات من داخل سجنه، يناظر فيها كبار الضباط والفلاسفة والمفكرين الفرنسيين وغيرهم. واسمر كذلك طيلة حياته التي عاشها لاحقا في دمشق، أين ظهرت مواقفه الإنسانية وزادت شخصيته العلمية تطورا وتبحرا في العلوم والمعارف، وقد تتلمذ على يده ألاف الطلاب، واعتبره علماء الشام ومصر مرجعا دينيا وعلميا وفكريا. إلى أن توفي رحمه الله، ودفن بجوار الشيخ الأكبر ابن عربي. وفي هذا البحث سنحاول الإجابة عن السؤال الإشكالي التالي، ما هي معالم التجديد في الفكر السياسي والديني للأمير عبد القادر خاصة وان كثيرا ممن كتبوا عنه ظلوا يختزلون شخصه في جهاده ونضاله ضد المحتل؟

وللإجابة عن هذا السؤال ارتأينا أن نقسم بحثنا هذا إلى :

أولا: الأمير عبد القادر مسيرة شخصية حافلة .. بين العلم والمعرفة والفروسية والجهاد.

ثانيا: التجديد في الفكر الديني الإسلامي.

ثالثا: رؤية الأمير عبد القادر التجديدية في فكره الديني والسياسي.

أولا: الأمير عبد القادر مسيرة شخصية حافلة .. بين العلم والمعرفة والفروسية والجهاد:

ولد الأمير عبد القادر ابن محي الدين يوم الجمعة 23 رجب1222هـ 1808م ببلدة القيطنة من أعمال معسكر بالمغرب الأوسط لأسرة اشتهرت بالعلم والتقوى والصلاح، هاجرت من المغرب الأقصى إلى نواحي وهران. تربى في رعاية والده، وقرا القرءان في مدرسته، وقرأ عليه الفقه وغيره، واخذ العلم على أهله، وفي سنة 1236هـ سافر إلى وهران أين أكمل دراسته، حيث برع في مختلف العلوم التوحيد والفقه والحكمة العقلية، وحفظ البخاري.وتفوق على جميع أقرانه. وكذلك برع في الفروسية والسلاح ليصبح عالما فاضلا وفارسا مدربا جمع بين السيف والقلم والفروسية والعلم والأدب.(نزار اباضة، ص ص 9، 10)

وبعد عودته إلى بلدته بعد سنين من الدراسة والتحصيل المكثف، تزوج ابنة عمه وفقا لعادات وتقاليد مجتمعه وثقافته التي كانت تحبذ الزواج المبكر، وأصبح إماما يلقي دروسا في جامع الأسرة، خاصة تفسير القرءان الكريم. وبقي عاكفا على التحصيل الذاتي والتثقيف المستمر وشغوفا بالفروسية والصيد والتدرب على السلاح وكان والده يكبره ويهتم به ويستشيره في كل أعماله الدينية والاجتماعية والسياسية.(بركات محمّد رمضان، ص10)

وهكذا يبدو لا أن شخصية الأمير عبد القادر تكونت مبكرا بفضل استعداده الفطري ولا شك في ذلك. وكذلك بفضل دعم والده وإكباره له واهتمامه به فوصل إلى مرحلة النضج الفكري والروحي في سنوات حياته الأولى.

كانت أولى رحلات الأمير خارج بلاده إلى الحجاز حيث قصد مكة المكرمة رفقة والده، فمشيا برا إلى تونس أولا ثم ركبا البحر إلى الإسكندرية، فالسويس فجدة وبعد أداء فريضة الحج توجها إلى دمشق وبقيا فيها مدة. فاخذ هو الطريقة النقشبندية على الشيخ خالد النقشبندي، ومنها رحل إلى بغداد فاخذ الطريقة القادرية على الشيخ محمود الكيلاني . ثم

رجع إلى دمشق، ومنها ارتحل إلى مكة فأديا فريضة الحج مرة أخرى . ورجعا عن طريق البر إلى بلدهما سنة 1243هـ.(نزار اباضة، ص10)

كانت هذه الرحلة فرصة ثمينة اخذ فيها الأمير عبد القادر المزيد من العلم والثقافة على علماء المشرق وتعرف على مشاهير الصلحاء والعلماء في مصر وبغداد ودمشق، والبقاع المقدسة ، وقد تعرفا كذلك على التطورات التي ميزت المشرق في هذه المرحلة في مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية.

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م واستسلام داي الجزائر اضطر حاكم وهران " حسن بك" التركي إلى تسليم بلدة وهران، وتولى الأهالي القتال والدفاع عن حماهم ضد المغتصبين وكان السيد محي الدين قائدهم، استمر جهاده سنتين كان خلالها ولده عبد القادر مقاتلا باسلا معه في ميادين الجهاد. وبسبب كبر سن محي الدين اعتذر عن الإمارة وتنازل عنها لولده عبد القادر، الذي قبلها بروح الواثق من نفسه، " أنا لها ، أنا لها". وعقدوا له البيعة الأولى سنة 1248هـ. ولما شاع أمر البيعة الخاصة توافدت الجموع والوفود من كل مكان، وانعقد مجلس عام حضره جمهور غفير من الأشراف والعلماء والرؤساء من كل القبائل، وجرى فيه عقد البيعة الثانية في قصر الإمارة في 13 رمضان سنة 1248هـ، واختار الأمير مدينة معسكر لإقامته وأذن ببداية الحرب على المحتل وصال في مختلف أنحاء البلاد يوحد بين صفوف القبائل المتنازعة ويقاوم الفرنسيين في كثير من المعارك، وقد انتصر عليهم في اغلب الوقائع.(بركات محمّد، ص ص14، 15)

بنى الأمير عبد القادر إمارته على العدل والفضل والنظام وضرب النقود من الفضة والنحاس، وانشأ معامل الأسلحة واللباس، ووضع للدولة الجديدة دستورا تضمن مجموعة القوانين التي تنظم مجموعة القوانين التي نظمت دولته الفتية، وعين رجال الدولة ووزراءها وهرعت سلطات الاحتلال إلى عقد معاهدات اعترفت له بمقاطعة وهران ومستغانم والجزائر. ولكن لم تستمر هذه المعاهدة طويلا، واعدت له جيشا عظيما لم يستسلم له الأمير إلا بعد

أن ثبت في الميدان وبعد أن فر معظم أنصاره، وعجز سلطان المغرب عن الدعم، وبعد أن نفذت جميع الحلول أمامه استسلم للفرنسيين. 1264هـ 1847م بعد مشاورة أصحابه. (نزار اباضة، ص ص11، 12)

استسلم الأمير عبد القادر لقوات الاحتلال ووقع على اتفاق اشترط فيه سلامته وسلامة عائلته، ووزرائه وضباطه، وأن يخرج بأسرته إلى عكا أو الإسكندرية وان يكون كل من بقي في البلاد آمنا على حياته وماله. وقع الفرنسيون ولكنهم خدعوا الأمير ونقلوه ومن معه إلى طولون ثم إلى امبواز بعد ستة أشهر حيث بقي سجينا فيها حتى عام 1862/1266 ونقل إلى بوردو وثم إلى نانت ثم أعيد إلى امبواز أخيرا وقد زاره في سجنه، الكثير من أصحاب المناصب والضباط الذين ذهلوا لشدة علو همته وصلابته وقوته. وجاءه الفرج بعد سنوات الأسر حيث أطلق سراحه فتوجه إلى باريس ثم الأستانة ليقرر في الأخير الرحيل إلى دمشق التي استقبل بها استقبالا حارا يليق بشخصه.(محمد بركات ، ص14-15)

أكمل الأمير حياته في دمشق التي غادرها لإقامة فريضة الحج، وزيارة بيت المقدس والآستانة، ثم عاد إليها وتفرغ للتأليف، والتدريس والعبادة والتصوف لا يكل ولا يمل من تحصيل العلم والمعرفة حتى أضحى قبلة العلماء والفقهاء ومحجتهم، يرجعون إليه في كثير من الأمور الدينية ويستندون على آرائه، وكان الطلاب يتحلقون حوله بسبب طريقته غير المعتادة في التدريس، حيث كان والقرءان الكريم والحديث الشريف قاعدة الدرس والمناقشة، إلا أنه كان يحلل النصوص الفلسفية اليونانية تحليلا عقليا وفلسفيا، وهذا ما لم يكن مألوفا.(نزار اباضة، ص11-12)

وبعد سنوات طويلة قضاها الأمير عبد القادر مدرسا ومؤلفا وكاتبا أصيب بمرض المثانة والكلى، قاسى آلاما عظيمة لم يتأوه منها قط، ولا ترك فرضا قط، بل ظل مشتغلا بالمراقبة والذكر حتى وافاه الأجل، في التاسع عشر من رجب عام 1883/1300. في دمشق ودفن بجوار القطب الرباني الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي الذي كان الأمير عبد القادر معجبا

به وقد تأثر به تأثرا بالغا في تصوفه. وبعد استقلال الجزائر نقلت رفاته إلى العاصمة الجزائرية عام1968م.(نزار اباضة، ص11-15)

يمكن القول بعد هذه الرحلة في حياة الأمير عبد القادر أنها كانت حافلة بهمة وشجاعة وانجازات وتجارب نادرة قلما اتصف بها القادة العسكريون. ولعل أهم نقطة قوة صنعت مسيرة الأمير عبد القادر هي قوته المعرفية وتمكنه من العلوم. والتي اشتملت على العلوم الدينية والفلسفية والعقلية. والمرحلة الأخيرة من حياته هي المرحلة التي تفرغ فيها للتدريس والتأليف فكان له الخلود في الذاكرة الإنسانية كقائد حرب متمرس ودبلوماسي محنك، وشاعر مبدع ذواق، وعالم وعارف صوفي أبدع في كل الميادين التي خاضها.

ثانيا: التجديد في الفكر الديني الإسلامي

تجديد التفكير الديني قضية ملحة فرضتها التحولات التي عرفتها الأمة الإسلامية، بسبب الركود والجمود الذي حل بها على المستوى السياسي والفكري والثقافي والاجتماعي، وبسبب الاحتكاك بالثقافة الغربية التي جاءت جيوشها غازية، للأرض والثروات وحاولت طمس هويتها وثقافتها، ولذلك نهض رجال من الأمة لإعادة إحياء علوم الدين وتجديد التفكير الديني، وبعث روح جديدة بوعي جديد، فما هو تجديد الفكر الديني؟

التجديد لغة: تتعدد معاني مادة جدد في معاجم اللغة، وسنتوقف عند معنيين رئيسين، جد بمعنى صار جديدا وجد بمعنى اجتهد واصل الجد عند العرب القطع، نقول ناقة جدود، هي التي انقطع لبنها، وثوب جديد، مجدودا يراد به حين جده الحائك أي قطعه.(ابن منظور، لسان العرب، ص114.) والجدة مصدر الجديد ... وتجدد الشيء صار جديدا وأجده جدده ، واستجده أي صيره جديدا والجدة نقيض البلى.(ابن منظور، ص115).

وقد ورد في القرءان الكريم الأصل " جدد" بصيغة تدل على معنى الجديد في غير ما موضع، بصيغة تدل على ذات المعنى الجديد والمحدث، مثل قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ "(الآية 19 إبراهيم). وقوله:"

وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (الآية 10 السجدة)[2].

وكذلك ورد " **مصطلح التجديد**" في السنة النبوية الشريفة، في مواضع كثيرة ومنها ما يدل صراحة على تجديد الدين، كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة عنه، انه ﷺ قال:" أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".(سليمان بن الأشعث السجستاني، ص 106-107)

لذلك فانه يمكن القول أن التجديد له من الأدلة والحجج ما يسنده ويؤصل معناه في معاجم اللغة، وفي القرءان الكريم، والسنة النبوية الشريفة وقد اهتم به العلماء المسلمون عبر كل تاريخهم.

وقد عُرف التجديد عند العلماء القدماء بأنه:" إحياء الدين عندما تتعرض الأمة لتحديات العصر الكبرى، التي قد تهدد الكيان الإسلامي في العقيدة والمجتمع والأخلاق والقيم".(سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي المعاصر، مكتبة بيروت، ط1، 2007، ص180)

ويعرفه بعض المفكرين المعاصرين الباحثين في الفكر الإسلامي:" عود بالدين إلى مغزاه، الأصل، وهو إحياء لمعاني الدين الحق في النفوس، ثم إقبال على واقع التدين لترقية الالتزام بأحكام العمل المقررة شرعا، ولمكافحة ما طرأ على التدين من بدع، غشيت الدين بممارسات خاطئة ليست منه في شيء.(محمد الفران، ص86)

وأما الفكر الديني فإن المقصود به: بنية النص المتصل والمتفاعل بشرائط ومكونات الزمان والمكان والحال، ومرجعيتها مجموع القواعد والأصول والثوابت التي يرجع إليها ذلك الفكر، ويستند عليها ويقوم بها، إنما هو اجتهاد فيه بحث عن الجانب المنهجي الذي يقوم الفكر الذي هو الجانب المعرفي الذي يستند في كل أحواله على الإسلام قرءانا وسنة وتراثا كجانب مرجعي.(زكي الميلاد، ص ص141، 142)

[2] الآية 10 السجدة ، ونفس المعنى الوارد في هذه الآيات ورد في الايات7: سبأ، 15: ق، 49 و 98: الإسراء.

انطلاقا مما ذكر في صدد الحديث عن التجديد نصل إلى أن المسلمين احتاجوا إلى تجديد الفكر الديني في كل مراحل تاريخهم، والمقصود به هو الفهم البشري المتكوَّن حول الدين، وليس المقصود هنا تجديد العبادات والعقائد، والأخلاق. إنه حركة تاريخية شاملة تنهض بأمر الدين بعثا للإيمان في النفوس، وعود إلى العمل بالشريعة بعد إقصائها، فيتحول بذلك الدين إلى عنصر حيوي وفق منهج ومرجعية وضوابط، بحيث يكون خطابا نهضويا يرمم البنية الفكرية فيخلع ثوب التقليد والجمود، سواء تقليد الماضي أو الآخر المختلف عنه في العقيدة والفكر والدين والمرجعية، وبذلك تتمكن المنظومة الفكرية الإسلامية من الإنتاج المبدع للمعاني والأفكار بحيث تحل إشكالات الواقع.

ثالثا: رؤية الأمير عبد القادر التجديدية في فكره الديني والسياسي:

أ: رؤيته التجديدية في الفكر السياسي:

تنطلق رؤية الأمير عبد القادر للدولة والسياسة من رؤية كلية شاملة مستندة على ثقافته الواسعة التي اكتسبها من القرءان والسنة وكتب التراث التي تجول فيها بين الفقه والتفسير والفلسفة والتصوف ، وكذلك رحلاته ووعيه بعدوه المتربص به، ومعرفته لأهدافه وثقافته ونواياه .. ولذلك جاءت دولته بصيغة فريدة وقد ذكر في مؤلفاته مصطلحات مثل السياسة ، النظام، القانون ، الاجتماع ، الصناعة، المدنية..

انه ومن خلال مؤلفات الأمير وسيرته والذين كتبوا عنه وعرفوه عن قرب من الأعداء والأصدقاء يبدو واضحا انه قبل وأثناء الجهاد وصل بوعيه إلى انه بحاجة إلى بناء دولة قوية تقوم على العدل والشورى والمؤسسات والمصانع:" هي رؤية لعالم أفضل يطمح فيه الأمير عبد القادر إلى تأسيس دولة عصرية تقطع صلتها مع النظم التقليدية، ومنذ تولي القيادة السياسة والعسكرية لدولته الجديدة اجتهد في قطع كل جدل مع الإمارات التقليدية ولجأ إلى البيعة التي جددت له عدة مرات في أنحاء متفرقة من الوطن ...كان ينشد وعيا آخر وعيا ممكنا

يطمح في بناء دولة عصرية بمعناها الشامل، دولة تنهض على المؤسسات الإدارية والعسكرية والقضائية، والدينية والشورية".(نور الدين صدار ، ص 376)

ومنذ أن تمت البيعة ضبط أمر الدولة الجديدة وأحدث إصلاحات داخلية عميقة:" لما تمت بيعة الأمير واستقام له الأمر، اتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة ... وبث العمال والقضاة في سائر الجهات، ورتب مجلسا للشورى... ودون الدواوين وطفق يرد على الناس ما اختلسه بعضهم من بعض، وينصفهم مما وقع بينهم من أنواع المظالم والتعديات، ويهدم ما كانت الحكومة الجزائرية أسسته من المغارم والضرائب، والعوائد".(تحفة الزائر، ص 104) وبهذا يوقع بداية عهد جديد يسعى فيه إلى الإصلاح السياسي والتغيير الاجتماعي. فلا شك أن إصلاح الداخل هو أهم عامل من عوامل بناء الدولة ومحاربة العدو المتربص.

ورغم أن البيئة التي عاش فيها الأمير عبد القادر كانت تتسم بالاستبداد السياسي والضعف الاقتصادي والجمود الفكري ولكنه استطاع أن يرسم خطة طريق لدولة قوية تصارع العدو وتبني دولة مؤسسات:" لكن الأمير الذي ولد في بيئة دينية محافظة أثناء فترة جمود عقلي واستبداد سياسي ... سرعان ما ادرك كان دوره بعد أن امسك بزمام السلطة هو بناء دولة عصرية تقوم على جيش منظم وإدارة محكمة عادلة، ونظام ضريبي دقيق جديد، ويربط علاقات متفهمة بالعالم الخارجي، وإقامة مصانع تلبي حاجات المجتمع الجديد، واستيعاب وفهم عميق لروح الدين وحاجات العصر".(شارل هنري شرشل، ص 15)

ويذكر الأمير في مؤلفه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، أهمية الصناعات، والحرف والزراعة والسياسة:" وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وأعمالهم، وصناعتهم وحرفهم،... وهي أربعة: الزراعة وهي المطعم، والحياكة وهي الملبس، والبناء وهو للمسكن، والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة".(عبد القادر الجزائري، ص8)

وهي رؤية شاملة لما يجب أن تتوفر عليه الدولة كي تنهض بوظائفها المنوطة بها، من توفير العيش الكريم وحماية الحدود والرد على الغزو.

وينظر الأمير عبد القادر للسياسة تنظير رجل ميدان، وتنظير باحث ومفكر اطلع على كتب الفلاسفة المسلمين واليونان وسيرة الخلفاء الراشدين فيرى أن الإنسان مدني بطبعه ، لذلك فهو محتاج إلى التمدن والاجتماع مع بني جنسه، وغالبا ما ينتج عن اجتماعهم خصومات ونزاعات تحدث بين أفراد الأسرة الواحدة وتحدث بين العامة من الناس في الحاجات المختلفة، ويتنازع أرباب الفلاحة والرعاة على الأرض، وبالإضافة إلى الخصومات يحدث أن يعجز بعض الناس عن الصناعة، والعمل بسبب مرض أو هرم، ولو ترك هؤلاء دون قانون ونظام وجنود وخراج وصناعة، لهلك من هلك وضاع من ضاع، وتقاتل من تقاتل. ولذلك لابد من قانون عادل يحكم بينهم، وجنود يوفرون الحراسة للبلاد، وصناعة توفر القوت والسلاح. وخراج كمصدر دعم لخزينة الدولة، يوزع بين الناس بالعدل. والجباة مأمورون بالرفق، وهذه الأعمال والأمور لابد لها من ملك يدبرهم، ويفترض أن يكون عالما بالسياسة، وعارفا بحركة البيع والشراء، وطرق اتخاذ النقود من الذهب والفضة والنحاس.(عبد القادر الجزائري، ص ص15، 16)

وهكذا لا ينسى الأمير عنصرا من العناصر الأساسية المشكلة للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فلا تقوم للدولة قائمة دون حضور جميع هذه العناصر واليقظة والحرص في تسييرها.

وحين أسس دولته وضع مخططات وعمل على تنفيذ مشاريع جديدة للتقدم والإصلاح:" ولما كان عبد القادر يتقد غيرة لتحقيق مهمته العظيمة على أكمل وجه، فإنه لم يضع ساعة واحدة، ليلا أو نهارا، في التخطيط والترتيب وتنفيذ مشاريع جديدة للتقدم والإصلاح، لقد كان الهدف الأسمي والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب الجزائر، شعبا واحدا، ودعوتهم التامة للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم وإيقاظ كل قدراتهم الهامدة، سواء للحرب أو للتجارة، أو للزراعة، أو للخلاق والتعليم".(شارل هنري شرشل، ص 148)

وقد كان لا يغفل عن مشاريعه ولم يوكل أمرها لغيره، بل ظل متابعا لها دون كلل أو ملل:" كان عبد القادر استطاع أن يواصل وينجز خططه الإصلاحية بمراقبته الشخصية المستمرة التي

لا تعرف الكلل، وكان دائم الحركة يفتش جنوده، ويزور مخازنه الحربية ويتفقد مدارسه، ويدير القضاء. وكان يبدو أن سلطان العرب الشاب يجسم مبادئ التقدم وانه كعبقرية مباركة، كان يزرع بركات المعرفة والأمن والرضى أينما حل وارتحل".(شارل هنري شرشل، ص155)

إن وضع الخطط الإصلاحية والمشاريع التي تنهض بالدولة الفتية لن يحقق أهدافه إلا بعين ساهرة تجسدت في شخص الحاكم عينه يراقب كل كبيرة وصغيرة ويقطع كل يد تهم بالفساد والطغيان :" وأخيرا نجح عبد القادر في إقامة جهاز حكومة كانت بحكم الانسجام بين مختلف أجزائها تعد وعدا طيبا بالنجاح والدوام والسلم الإداري البسيط الذي خلفه في هذا الجهاز كان يتماشى تماما مع حاجة قومه الإدارية وعواطفهم الوراثية، فالموظفون العاملون كانوا قلة، وأجورهم كانت معتدلة، ومجال نشاطهم كان محددا بدقة، وإذا كانت يدهم تمتد بلا حدود إلى المداخيل العامة، فان يقظة رئيس الدولة كانت تمنع من وجود الطغيان أو الفساد أو سوء التصرف".(شارل هنري شرشل، ص156)

نجح الأمير عبد القادر في تأسيس و قيادة الدولة في هذه الظروف العصيبة التي كانت البلاد تمر بها، وطبق العدل ودافع عن الحمى بحمية لأنه لم يطلب السلطة للنفوذ أو المال أو التسلط على الرقاب او التراخي عن المسؤوليات والأمانة :" إنني لم أتقدم لتولي مسؤولية الحكومة بمحض الطموح، أو الرغبة في السلطة والجاه، أو حبا في ثروات الحياة الدنيا، ولكن والله وحده يعلم أسرار القلوب، لأحارب في سبيل الله ولاحقن الدماء بين المسلمين ولاحمي ممتلكاتهم، ولأمهد البلاد، كما تقتضي ذلك الغيرة على الدين والوطنية، ومنذ تحملنا المسؤولية ونحن بالمرصاد ليلا نهارا متنقلين في طول البلاد وعرضها، في السهل والجبل مرة نقود المعارك وأخرى ننظم شؤون الدولة".(رسالة من عبد القادر ابن محي الدين في: محرم1254/أكتوبر 1838.نقلا عن كتاب شرشل، مرجع سابق، ص ص156، 157)

إن خلاصة ما يمكن إن يقال عن التجديد السياسي عند الأمير عبد القادر أنه استطاع إحداث تغييرات واضحة في شكل نظام الحكم، وعرفناه منظرا لعلم السياسة تحدث فيه بنظرة مفكر مرجعيته القرءان والسنة وكتب علماء المسلمين الأوائل وفلسفاتهم، فتحدث عن

الصناعة والجندية والعدل والنظام والقانون والخراج والنقود. ومارس السياسة في الميدان –قبل كتابة مؤلفه ذكرى العاقل– فأسس دولة سهر فيها على تطبيق النظام والحكم بالعدل، وعمل على اجتثاث الفساد وقطع رؤوسه، والاهتمام بالصناعة والتعليم. وكانت النتيجة أن أحدث الإصلاح المرجو والتغيير الذي أسس دولة قوية داخليا مجابهة للعدو مستعدة للرد عليه. وقطعت كل صلاتها بماضي الاستبداد والفساد والتناحر.

ب: رؤية الأمير عبد القادر التجديدية في الفكر الديني:

اشتهر الأمير عبد القادر بأنه رجل حرب وحكم وسياسة، وكثيرا ما يركز العسكريون والسياسيون وحتى كتاب السير على هذا الجانب في شخصه، لكن هذا الرجل الذي كان مجاهدا وقائدا عسكريا وسياسيا كان رجل علم وصاحب فكر ومنهج. ورؤية إصلاحية، وكما رفض الواقع السياسي القائم ورفض وجود المحتل لأرضه وهب للدفاع عنها، رفض الجمود الثقافي والفكري والديني الذي عاصره، وقدم رؤية جديدة رفض فيها التقليد.

دعا الأمير عبد القادر إلى نبذ التقليد وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور، ومعرفة الحق بالدليل، والعقل والعلم هما الوسيلتان الوحيدتان لأدراك الحق والعاقل :" ينظر في القول إلى قائله فإن كان القول حقا قبله سواء كان قائله معروفا بالحق أو بالباطل".(عبد القادر الجزائري، ص 3)

والعالم الحقيقي هو من نبذ التقليد واحتكم إلى الدليل وهذا يسعد نفسه ويسعد غيره، أما إذا قلد الآباء عن غير بصيرة وإعمال العقل، فانه هالك مهلك لنفسه وغيره:" عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره وهو الذي قلد آباءه وأجداده، في ما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده. والأعمى لا يصلح لان يقود العميان".(عبد القادر الجزائري، ص 3)

ويقسم الأمير عبد القادر العلوم إلى قسمين: قسم محمود وآخر مذموم، فأما لمحمود فهو :" ما ترتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب، وكل علم لا يستغنى عنه في قوام أمر

الدين والدنيا، كأصول الصنائع والفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة".(عبد القادر الجزائري، ص 15)

أما العلوم المذمومة " العلم لا يذم لعينه من حيث أنه علم ...إنما يذم بعض العلوم لأحد أسباب. إما لكونه مؤديا إلى ضرر إما بصاحبه أو بغيره كعلم السحر والطلمسات". (عبد القادر الجزائري، ص 17)

يقدر الأمير عبد القادر العلوم ولم يحتقر علما من العلوم ولم ينس علما من العلوم إلا الذي يعرض الإنسان للأذى، والعلوم الشرعية التي هي وراثة عن الأنبياء ضرورية لهداية الناس والعلوم العقلية أيضا ضرورية لكنها لا تكفي، وبين العقل والنقل تكامل لا تعارض وتناقض، فلا يمكن للعلوم الشرعية أن تستغني على العقل، ولا يمكن للعلوم العقلية أن تستغني عن الشرع. لذلك فان من يدعو الناس إلى التقليد المحض الذي يعزل العقل جاهل، والذي يدعو إلى الاكتفاء بالعقل عن الشرع مغرور. العلوم العقلية كالأغذية للجسم والعلوم الشرعية كالأدوية. (عبد القادر الجزائري، ص 19)

هذه النظرة متجاوزة لعصره الذي ساد فيه الجمود وأسس لنظرية التكامل المعرفي التي خطها العلماء الأوائل وتعرضت للتهميش في عصور الضعف.

إن إلقاء نظرة على واقع التعليم في عصر الأمير عبد القادر الذي ورث الجمود والتقليد عن عصر الضعف يجدها تتميز بـ:" إن هذا الإسلام انقلب إلى جدلية كلامية في العقيدة، وتفكير خرافي في النظر إلى الكون، وعبادة سلبية اعتزالية شكلية، وصوفية أعجمية تعتزل الحياة وتفر من معركتها، واستبداد في الحكم، وركود في الحياة الاقتصادية، وشكلية فقهية ونصوصية ضيقة." (محمد المبارك، ص 96)

لقد كانت العناية بالجزيئات من المسائل في كلّ العلوم، فلم يسلم منها أيّ علم من العلوم، وكان هذا الأمر موجودا في النحو والفقه والتفسير والبلاغة و...، وقد وصل الإسراف في الجدال العقيم إلى حد الابتعاد عن الواقع ومشكلاته. وعدم الاهتمام بربط الموضوعات ببعضها البعض، وعدم الالتفات إلى استخراج النّظريّات العامّة، والكلّيّات والأصول. وكانت

النتيجة المنطقيّة لهذه الطّريقة تحوّل الطّلاب إلى نقلة ومقلّدين ينظرون إلى المعارف المحصلّة من مؤلفّات السّابقين على أنّها مسلّمات لا مجال للشّك فيها، دون أن يتجرّأوا على البحث في أدلّتها العقليّة أو النّقليّة ومناقشتها. (محمّد المبارك، ص ص 34- 36)

لكن الأمير عبد القادر لم يتبع في أسلوبه التعليمي أو في تعامله مع العلوم والمعارف النقلية والعقلية لنمطية السائدة وقد كان انطلاق الأمير في الإصلاح من العودة إلى كتب التراث في عهد ازدهار الحضارة الإسلامية خاصة بعدما ادر ك أن هذا المحتل يريد تحطيم ثقافته وهويته، وانه خرج من عصور الظلام التي كان يعيشها وطور معارفه:" اهتم الأمير بهذه الكتب التراثية العميقة في علومها، لحاجته الشديدة إليها في مواجهة التخلف الموروث في بلاده من ناحية، ولتصديه للمواجهة العقلية والعلمية من ناحية أخرى . خاصة بعد الغزو الفرنسي لبلاده، ذلك الغزو الذي لم يهدف فيه الفرنسيون إلى الاستيلاء على أرض الجزائر وثرواتها فحسب، بل أرادوا فرنسة الجزائر نهائيا، والاستيلاء على فكر وعقيدة ذلك الشعب العربي المسلم.(بركات محمّد رمضان، ص 31)

وقد دعا الأمير صراحة إلى ضرورة تجديد فهم القرءان الكريم ولكن ليس بمعنى الإضافة إلى إليه ما ليس فيه:" وأهل طريقنا ﷺ، ما ادعوا الإتيان بشيء من الدين جديد، وإنما ادعوا الفهم الجديد في الدين التليد. وساعدهم الخبر المروي انه: لا يكمل فقه الرجل حتى يرى للقرءان وجوها كثيرة، والخبر الآخر أن للقرءان ظهرا وبطنا، وحدا ومطلعا". (عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرءان إلى الأسرار والمعارف، تحقيق عبد الباقي مفتاح، ج1، ط1، 1426، دار الهدى، الجزائر، ص106)

ولذلك يرى أن هناك من يستطيع أن يضيف فهما غير الفهم المتوارث ممن فتح الله بصائرهم، ونور سريرتهم ويستخرج من الآيات والأحاديث :" فغير بعيد أن يكون مراد الحق تعالى من الآية كل ما فهمه أهل الظاهر وأهل الباطن، وما لم يفهموه، ولذلك ترى كلما جاء احد ممن فتح الله بصيرته ونور سريرته يستخرج من الآية معنى ما اهتدى إليه من قبله، وهكذا

إلى قيام الساعة ، وماذا ك إلا لاتساع علم الحق تعالى".(عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرءان إلى الأسرار والمعارف، تحقيق عبد الباقي مفتاح، ج1، ط1، 1426، دار الهدى، الجزائر، ص106)

لا تنتهي عجائب وأسرار القرءان الكريم في عصر من العصور ولا تقف عند مفسر من المفسرين فسنة الله اقتضت أن فهمه واستيعابه سنة ماضية إلى يوم القيامة وهذه هي الحقيقة التي طمست في عصر الضعف والتقليد الذي ساد وانتشر بين العلماء وطلبة العلم. ويعرف الطاهر بن عاشور علم التفسير:" بأنه شرح مراد الله تعالى من القرآن الكريم ليفهمه من لم يصل ذوقه وإدراكه إلى فهم دقائق العربية، وليعتاد بممارسته ذلك فهم كلام العرب وأساليبهم من تلقاء نفسه، دونه السلف بسبب شعورهم بضعف اللغة العربية بين أكثر المسلمين، ولعلمهم بأهميّة فهم الأمة للقرآن". (مُحَّد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية إسلامية،دار السلام، ط2، 1428-2007، تونس 64. مُحَّد بن الطاهر بن عبد القادر 1879 بتونس، تلقى تعليما أصيلا منذ نشأته، التحق بجامع الزيتونة واقتحم ميدان التدريس بها، واهتم بدراسة العلوم الشرعية وشخص ضعفها ودعا إلى إصلاحها.)

ولكنه ضعف ووهن وأصبح تسجيلا يقيّد به فهم القرآن، ويضيّق به معناه الذي كان السلف يقولون فيه: إنه لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ معانيه. (مُحَّد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية إسلامية،دار السلام، ط2، 1428-2007، تونس ص 166)

والأمير عبد القادر بنظرته إلى تجديد فهم الآيات القرءانية التي لا تنقضي عجائبها، يتجاوز السلبيات والضعف الذي وقع فيه العلم الشرعي.

ورغم أن عصر الأمير عبد القادر اشتهر بكثرة الأدباء والشعراء الذين اهتموا بالنحو والصرف إلا انه لم يهتم به لأنه من علوم الوسائل لا علوم المقاصد ورأى أن الجهد يجب أن يصرف في علوم المقاصد والفكر:" كان الشعراء والأدباء إضعاف العلماء، وكانوا موضع ثقة نقاد الأدب ودارسيه، لدرجة كبيرة، لكن الأمير المجاهد والصوفي والمفكر لم يلتفت للنحو والصرف والعروض التفافه إلى بقية العلوم والى الشعر. لرأي يراه في مذهبه الثقافي وهو صرف الجهد إلى الهدف دون إطالة الوقوف عند الوسائل. (بركات مُحَّد، ص38.)

وقد انتقد ابن خلدون هذا الواقع الذي سيطر على العقلية العلمية في عصره والعصور التي تلته، ومنها عصر الأمير عبد القادر من تحويل علوم الآلات إلى علوم مقصودة لذاتها كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه، لأنّهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيّرها من المقاصد، وربّما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة، فهي من نوع اللّغو وهي أيضا مضرّة بالمتعلّمين على الإطلاق. (عبد الرحمان ابن خلدون، ص357)

وأما العلم الذي برع فيه الأمير عبد القادر وأبدع فيه واهتم به اهتماما بالغا وترك فيه بصمة واضحة وخالدة فهو علم التصوف :" الكثير من أشعار الأمير عبد القادر وكتاباته الصوفية في الديوان والمواقف، فإننا نجد فيها فارسا يصول ويجول ويكشف عن جوانب من العبقرية والفتوة في شخصيته الأصيلة، وهو في جميعها يقوم بدور المكتشف والمرتاد لأحوال ومقامات صوفية لم تطرق بعد، يمارسها بنفسه ويرتادها بمهمته وإرادته ويعبر عنها بحاله ومقاله، والمواقف في ناحية من نواحيه يعتبر سيرة ذاتية أو اعترافات سجلها الأمير للتاريخ لأفكاره، وأحواله ومقاماته". (بركات محمّد، مرجع سابق، ص37)

وما أشبه كتاب المواقف بالفتوحات المكية وفصوص الحكم للشيخ ابن عربي الذي اتخذه الأمير مثلا أعلى وقدوة. وقد أخذ الطريقة القادرية والنقشبندية وغيرهما فجعل التصوف منهج حياة وطريق تفكير. ويذهب بعض الدارسين الغرب إلى أن الأمير عبد القادر" هو الوريث الشرعي للمتصوف الكبير ابن عربي ، وقد ساهم في نهضة أكثر أهمية لكنها أقل ضجيجا". (برونو ايتين، ص16)

وبالإضافة إلى هذه الإضافات على المستوى المعرفي الذي ساهم به الأمير عبد القادر في إحداث النهضة العربية الإسلامية كان له نشاط ثقافي مكثف، وقد اكتشف أعداؤه ومناهضوه أهمية ثقافته الفلسفية والدينية، فحين سجنه في مدينة "امبواز "، كان يحاور ويناظر ويصادق المفكرين والساسة والأدباء والشعراء ورجال الدين من أصحاب الديانات

الأخرى، وأهل الصحافة وكان موجودا بقوة في مجالس التعليم والتدريس، وبين المتناظرين، وكان صاحب مراسلات ورسائل ومذكرات، وقد افتتح عصر المناظرات حول القضايا الدينية قبل أن تظهر بعشرات السنين بين الأفغاني وريتان، وبين مُحَمَّد عبده ولوبون وهانوتو، وبين قاسم أمين وداركور، وكذلك بين كاريل والسيد أحمد خان. وقد وصفت ردوده بأنها كأس دهاق من المعارف امتزجت فيها الفروسية بالفكر بالصدق، فقد واجه استعلاء الغرب بظاهرة حضارية تمثلت في تلك المباريات الفكرية والسياسية والدينية، حيث أجال النظر والتمس الدليل المقبول والتعليل المعقول دون توقف أو تخوف. (بركات مُحَمَّد، ص ص32-.33)

فبعد أن خاض معارك السلاح في ساحات الوغى ها هو يخوض حربا أخرى تحت عنوان الصراع الثقافي بين ثقافتين مختلفتين، وقد وصف البعض الأمير عبد القادر بأنه أول من افتتح حوار الأديان والحضارات بين الإسلام والمسيحية. ومن أمثلة ردوده الكثيرة على رجال الدين المسيحيين التي شملت موضوعات كثيرة رسالته" المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام، من أهل الباطل والإلحاد" فإنني في أيام إقامتنا عند الدولة الفرنساوية، تكلم احد رؤساء الدين المسيحي في الإسلام وقال أن الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح، ولا منهي عنه، .. فسمعه بعض ممن له محبة ورغبة في إظهار الحق فجاء إلي وألح في الطلب أن أضع في هذا الأمر رسالة تتضمن بيان ما في شرع الإسلام مما يكذب قوله، وينبذ سخفه. (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، الجزء2، سيرته القلمية، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903 ص، 27.)

يذكر الأمير أنه في البداية استصغر نفسه وشأنه و رفض الرد لأنه لا يرقى أن يكون تلميذا عند علماء المسلمين ولكن عظمة الأمر استدعت أن يضع رسالة يبين فيها أحكام الإسلام لمن ظلمه بجهله:" ولما كان المقصود من هذه الرسالة بيان حكم شرع الإسلام في الغدر والوفاء، وذلك مستلزم لذكر كلام المشرع، وكلام الله تعالى المنزل، لزمني ضرورة تقديم كلام في إثبات الألوهية ثم فن إثبات النبوة ... وبيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء والأمر به

وترك الغدر المنهي عنه". (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، الجزء2، سيرته القلمية، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903 ص، 28.)

وهكذا رد على كثير من الأسئلة والمطاعن التي وجهها الفضوليون والمستفزون من غير المسلمين فجاءت ردوده بحجج مبنية على العقل والنقل وقد بدت شبيهة بتلك الردود والطرق التي كان العلماء الأوائل يألفون بها كتبهم.

هذا موقف الأمير عبد القادر من العلوم الشرعية وغير الشرعية، ويكون السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل انتبه الأمير عبد القادر إلى التطور الفكري والصناعي الذي عرفته أوروبا في هذه الفترة، وهل وقف موقف المنبهر منها خاصة وأنه كما عرفنا في سيرته كان على اتصال مباشر بعلماء فرنسا وفلاسفتها، وحين أطلق سراحه زار العاصمة باريس التي كانت في ذلك الوقت منارة علمية وصناعية يؤمها الأوروبيون من كل مكان. والإجابة على السؤال نعم، اطلع وقد اطلع الأمير عبد القادر على التطور العلمي الذي شهدته فرنسا وأعجب باهتمامهم بالعقل وبتوظيفه في تطوير علوهم ومعارفهم، وصناعتهم ولكنه انتقد اتجاههم إلى إبعاده عن معرفة الله تعالى وقدرته وعظمته في خلقه:" اعتنى علماء فرنسا ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه، فاستخرجوا الصنائع العجيبة، والفوائد الغريبة، فاقوا بها المتقدمين واعجزوا المتأخرين، رقوا بها أعلى المراقي وحصل لهم بها الذكر الباقي، فلو استعملوا مع هذا العقل النظري في معرفة الله تعالى وصفاته، وفي معرفة حكمه في خلق السماوات... ،

لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك، والمزية التي لا تشرك، ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية حتى أنهم لا يسمع منهم لها ذاكرا، ولا يعثر عليها في كتبهم ناظر.(عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، ص15)

كانت أوروبا وفرنسا واحدة من أهم مدنها وحواضرها العلمية والفكرية والثقافية والفلسفية والصناعية، في هذه المرحلة تدشن عصر النهضة وتلاه عصر الأنوار ، الذي أخرجهم من تخلف العصور الوسطى إلى عصر جديد تطورت فيه العلوم والمعارف والصناعات، وكانت

أيضا تفتح عصر العلمانية التي شنقت آخر ملك بأمعاء آخر قس– وهذا بعد الجمود والتسلط والتخلف الذي اتسم به الدين المسيحي في العصور الوسطى–، ولم يعد الدين واللاهوت يجد له مكانا في الحياة الثقافية والعلمية والفكرية، وقد انتبه الأمير عبد القادر إلى هذا الخواء الروحي والفراغ العظيم في ثقافتهم وكتبهم رغم ما تحقق من تطور وازدهار على الواقع في الحياة العامة فلم يكن منبهرا بحضارتهم بقدر ما كان ناقدا لتوجهاتهم، وهذه هي المآخذ التي سيوجهها المفكرون المسلمون الذين جاؤوا بعد الأمير عبد القادر للحضارة الغربية، والتي كانت لها انعكاساتها الخطيرة على البشرية جميعا.

خاتـــــــــــمة

جاء الأمير عبد القادر في القرن التاسع عشر، كمصلح ومجدد في الفكر الديني والسياسي، في زحمة تلك الأحداث المتسارعة التي عاشتها بلاده الجزائر، وأمته الإسلامية جمعاء، حيث اتسم عصره بتخلف وجمود حركية الفكر الديني والنشاط الثقافي والصناعي والاجتماعي، والاستبداد السياسي من جهة، وبداية الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي، الذي تحتويه الدولة العثمانية المتهالكة. والذي افتتح بالاحتلال الفرنسي للجزائر، فظهر كقائد حرب جمع بين السيف والقلم وترك بالإضافة إلى تلك الملاحم في ساحات الحرب ضد المحتل، ترك إضافات فكرية وعلمية جديرة بالدرس والبحث وقد توصلنا في هذا البحث حول تجديده في الفكر السياسي والديني إلى ما يلي:

*تكونت شخصية الأمير عبد القادر ت مبكرا بفضل استعداده وبفضل دعم والده وإكباره له واهتمامه به فوصل إلى مرحلة النضج الفكري والروحي منذ سنوات حياته الأولى. وقد كانت حياته حافلة بهمة وشجاعة وانجازات وتجارب نادرة قلما اتصف بها القادة العسكريون. و أهم نقطة قوة صنعت مسيرة قوته المعرفية وتمكنه من العلوم. والتي اشتملت على العلوم الدينية والفلسفية والعقلية.

* احتاج المسلمون إلى تجديد الفكر الديني في كل مراحل تاريخهم، لان الفهم البشري المتكوَّن حول الدين يتبدد ويحتاج إلى حركة تاريخية شاملة تنهض بأمر الدين بعثا للإيمان في النفوس، وتأسيسا لخطاب نهضوي يرمم البنية الفكرية فيخلع ثوب التقليد والجمود.

* رفض الأمير عبد القادر الوضع القائم، وحرص اشد الحرص على تجاوز الوعي القائم بكل مستوياته التقليدية، فظهر في الميدان رجل دولة استطاع أن يغير شكل نظام الحكم القائم، وأسس دولة مؤسسات سهر فيها على تطبيق النظام، والحكم بالعدل واهتم بالصناعة والزراعة والتعليم والجند، وعمل على قطع دابر الفساد والفوضى. وكانت النتيجة بناء دولة قوية لا استبداد فيها ولا فساد ولا تناحر بين القبائل، ونظر الأمير عبد القادر للسياسة كرجل فكر مطلع على كتب الفلاسفة وكتب التاريخ، وسير الخلفاء والنبلاء والعظماء فتحدث عن دور الحاكم ومؤسسات الدولة وعناصرها المختلفة من جند ونظام وقانون وخراج ونقود.

على المستوى المعرفي نبذ التقليد ودعا إلى وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور، ونظر للتكامل

المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم الأخرى هذه النظرية التي خطها العلماء الأوائل وتعرضت للتهميش في عصور الضعف والانحطاط. وكانت له إشارات بدعوة صريحة إلى ضرورة تجديد فهم القرءان الكريم الذي لا تنتهي عجائبه وأسراره في عصر من العصور. رغم أن عصره ورث التقليد وسجن معاني القرءان في فهم العلماء الأوائل.

*اهتم الأمير عبد القادر بالتصوف اهتماما بالغا، وإن كان يعتبر بحق الوريث الشرعي للشيخ الأكبر ابن عربي وقد اخذ الطريقة النقشبندية والقادرية وغيرها إلا أنه عاش تجربة التصوف و مارس بنفسه وارتاد أحوالا ومقامات لم تُطرق، وقد ترك في ديوانه و في المواقف تجربة عميقة حظيت باهتمام المتخصصين ومازالت تلهم الكثيرين.

* يعتبر الأمير عبد القادر أول من افتتح عهد المناظرات والحوار بين الأديان والثقافات لأنه سبق مُحَمَّد عبده وجمال الدين الأفغاني وقاسم أمين وغيرهم في حوارهم مع فلاسفة الغرب ومفكريهم وقد كانت آراؤه فلسفية تنم عن ثقافة واسعة استعمل فيها الدليل المقبول والتعليل المعقول، دون تخوف أو انهزام، فكما صعب على خصومه هزمه في ساحات الحرب، كان فكره وحواره عصيا على الاحتواء والانهزام فكان يمثل مرحلة بكاملها، مرحلة الحوار والصراع مع الثقافة الغربية النامية الساعية للتغلغل.

*أخيرا يبقى السؤال هل كان الأمير عبد القادر مجددا من مجدد القرن التاسع عشر، والجواب هو لم يأخذ الأمير عبد القادر اهتمام الباحثين كمجدد ولم يعتبر كذلك، فهو لم يحدث ذلك لضجيج الذي أحدثه من جاؤوا بعده وربما عاصروه. إلا أنه للأمانة والتاريخ طرق مواضيع لم تطرق، ونبذ التقليد وكان مجددا حرص على أن يكون ضمن شروط المرجعية الفكرية الإسلامية، وكل كتاباته وشخصيته الإنسانية التي برزت في مواقف خالدة، وثقافته الواسعة التي رد بها ونظر بها، ليست شيئا أمام جهوده العظيمة في التعليم وانشغاله بما سماه الإمام عبد الحميد ابن باديس تأليف الرجال، فقد اتسم بطريقة تدريس جذبت آلاف الطلاب أثناء إقامته في دمشق، جاءوه من كل فج عميق في بلاد المسلمين وكان منهم من ساهم في حركة النهضة العربية الإسلامية . ومهما لم يصنف كمجدد مع مجددي القرن في العالم الإسلامي، إلا أنه على المستوى المغاربي أو على الأقل على مستوى تاريخ الجزائر يمثل الرجل مرحلة زمنية قائمة بذاتها لأنه جدد في نظام الحكم في الجزائر وأحدث تغييرات عميقة في شكل الحكومة وأسس دولة متكاملة الأركان حرص فيها على الصناعة والزراعة والتعليم والمالية والجندية والاهم من هذا إلغاء الضرائب و نشر العدل والأمان بين الناس، وجدد في طرائق التدريس وفهم علوم المقاصد والوسائل، وصحيح أن تجديده كان ضمن حدود وضوابط المرجعية الفكرية الإسلامية ولا يمكن وصف كثير منه بالمبدع والمتجاوز للعصر إلا أنه

كان السقف المعرفي الذي وصل إليه التحضر السياسي والمعرفي في الجزائر وقد عاش عصره وعصر غيره.

التوصيات:

إن أهم التوصيات التي نعتقد أن نخرج بها عن الأمير عبد القادر من خلال هذا البحث وهذا المؤتمر هي ما يلي:

*تستحق شخصية وطنية بحجم الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري-والتي اتسمت بكونها شخصية فكرية ذات ثقافة واسعة متشبعة بالقيم الثقافية والدينية والاجتماعية للإنسان الجزائري- وأدت أدوارا توشحت بوشاح البطولة في محاربة العدو ومواجهته وعدم الرضوخ له، وكسر عنجهيته- تستحق المزيد من الاهتمام والاستحضار في مناهج التربية والتعليم في المدارس القرءانية والزوايا وفي التعليم الرسمي الابتدائي والمتوسط والثانوي والجامعي، ومؤسسات الدولة العسكرية والثقافية والسياسية.

* الاهتمام بالتعليم الأصلي الذي كون شخصية الأمير عبد القادر، وإعادة إحياء نشاطه عله يساهم في إعادة بناء النشئ ويربيهم تربية قويمة.

دعوة المبدعين من المخرجين السينمائيين والفانيين جزائريين وغيرهم إلى صناعة أفلام سينمائية ووثائقية عن الأمير عبد القدر مؤسس الدولة الجزائرية، المجاهد الصنديد والعالم المربي، المدرس صاحب المواقف الإنسانية الخالدة.

قائمة المراجع:

1. نزار اباضة، الأمير عبد القادر الجزائري، العالم المجاهد، دار الفكر ، ط1، 1414هـ، دمشق، ص 9-10.

2. بركات مُحَمَّد رمضان، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، دط، دت، جامعة عين شمس ، مصر، ص10.

3. ابن منظور، لسان العرب، قدم له عبد الله العلايلي/ مج 1، دار الجيل، دط، 1408، ص114.

4. سليمان بن الأشعث السجستاني، أبو داوود، السنن، كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المائة، الجزء 4، رقم 4291، دار الجيل، بيروت، 1412هـ، ص 106-107.

5. سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي المعاصر، مكتبة بيروت، ط1، 2007، ص180.

6. مُحَمَّد الفران، مظاهر التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2007، ص86.

7. زكي الميلاد، الإسلام والتجديد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2008، ص141-142

8. نور الدين صدار ، البطولة ، الإنسان ، والتصوف تنويعات الرؤية والتشكيل عند الأمير عبد القادر ، مقاربة بنيوية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد37، العدد 2، 2010، ص 376.

9. تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، الجزء1، سيرته السيفية، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903 ص 104

10. تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، الجزء2، سيرته القلمية، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903 ص، 27.

11. شارل هنري شرشل، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمه وقدم له وعلق عليه، أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، دط، دت، ص 15.

12. عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، نسخة الكترونية، TOPDF.WWW al mostafa.com. ص8.

13. مُحَمَّد المبارك، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، ط1، دار الفكر،، دمشق2004 ، ص 96.

14. عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرءان إلى الأسرار والمعارف، تحقيق عبد الباقي مفتاح، ج1، ط1، 1426، دار الهدى، الجزائر، ص106

15. مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية إسلامية،دار السلام، ط2، 1428-2007، تونس 64. مُحَمَّد بن الطاهر بن عبد القادر 1879 بتونس، تلقى تعليما أصيلا منذ نشأته، التحق بجامع الزيتونة واقتحم ميدان التدريس بها، واهتم بدراسة العلوم الشرعية وشخص ضعفها ودعا إلى إصلاحها.

16. عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله مُحَمَّد الدرويش، ج1، دار البلخي، ط1، 2004، دمشق، ص357

17. برونو ايتين، عبد القادر الجزائري، ترجمة ميشيل خوري، دط، دت، دار عطية للنشر والترجمة، ص16